

العلامة محمد بن أبي شنب مسيرة علم وأخلاق

✽ جمال حجيره

جامعة الحاج لخضر باتنة

ayoubom34@gmail.com

ملخص البحث

العلامة محمد بن أبي شنب من علماء الجزائر الذين ولدوا وماتوا في أظلم فترة حضارية في تاريخ الجزائر الحديثة ألا وهي الفترة الاستعمارية، ورغم الظلام الحضاري الذي أسدله ليل الاستعمار إلا أن ابن شنب استطاع أن يكون مصباحاً منيراً يضيئ بعقله دروب المعارف لأبناء وطنه ، وقد استطاع بموسوعية فكره وسعة أفقه أن يحقق توازناً بين ثنائية استعصت على كثيرين، إنها التوفيق والمزج بين الأصالة والمعاصرة، وهذا أبرز ما يميز هذه الشخصية العلمية، وهو الشيء الذي يحتاجه المسلم المعاصر الآن، فابن شنب حافظ على هويته الدينية والوطنية، وفي الآن نفسه انفتح على الأفكار والفلسفات الأخرى، فكان هذا التوفيق سر ابداعه واكتمال شخصيته الفكرية.

Abstract

Muhammad ibn AbiShanabis one of the scholars of Algeriawhowereborn and died in the darkestcivilizedperiod in the history of modern Algeria. This is the colonial period, and despite the cultural darknessthatwasundermined by the night of

colonialism, Ibn Shanab could be a shining lamp that illuminated his knowledge of the people of his country. His idea and the scope of his horizons to achieve a balance between the bilateral eluded many, it is the reconciliation and the combination of originality and contemporary, and this is what distinguishes this world, which is needed by the contemporary Muslim now, Ibn Shanab maintained his religious and national identity, and at the same time open to other ideas and philosophies, It was this Reconcile the secret of his creativity and the completeness of his intellectual personality.

المقدمة

لكل أمة من الأمم علماء وأبطال تحتفي وتحتفل بهم، وتخلد ذكراهم ومآثرهم، ليكونوا مددا للجيل الجديد وقدوة حسنة يتمثلونها في حياتهم، فارتباط الحاضر بالماضي ومعاشية التاريخ برجاله وأحداثه يعتبر ظاهرة صحية، وسلوكا رشيدا ينير الدرب، ويبصر العقول إلى ما ينفعها ويرفعها، والجزائر من الأمم التي تملك تاريخا طويلا وأمجادا عظيمة، ولكنها - مع الأسف - فرطت كثيرا في هذا الخير ولم تحطه بالعناية المطلوبة، وقد عبر الإمام محمد الغزالي - عليه رحمة الله - عن ذلك بقوله: "لا أعرف أنا سقا قصرنا في حق تاريخهم المجيد مثلكم أنتم الجزائريون"⁽¹⁾.

⁽¹⁾ محمد الغزالي، قصة حياة، دار الرشاد للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م، ص 146.

ومن علمائنا الموسوعيين الذين حازوا تقدير أهل الشرق والغرب، ولكنهم طواهم النسيان ولا يعرفهم كثير من طلبة العلم والفكر في بلادنا، الدكتور محمد ابن أبي شنب الذي ليس من الدكاترة الأميين، الذين يحملون الشهادات ولا يجيدون اللغات، ولا يدركون المعاني العميقة والأفكار الدقيقة كما وصفهم الدكتور أحمد ابن نعمان⁽²⁾، فمن هو العلامة محمد ابن أبي شنب؟، وكيف كانت نشأته وتعليمه؟، وما هو إنتاجه الفكري وتأثيره العلمي داخليا وخارجيا؟.

أولاً: مولده ونشأته (المرحلة العلمية الأولى من حياته):

هو محمد بن العربي بن محمد بن شنب، ولد بمدينة المدية يوم الثلاثاء 20 رجب 1286هـ، الموافق لـ 26 أكتوبر 1869م، من أسرة صالحة جمعت عدة مزايا حسنة منها العلم النافع والغنى غير الفاحش والأخلاق الفاضلة⁽³⁾، فابن شنب إذا ولد في فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، وهي الفترة التي وجد فيها علماء كبار كعبد القادر المجاوي وعبد الحليم بن سماية ومصطفى بن الخوجة وابن زكري، وغيرهم كثير، واسم ابن شنب فيه اختصار فحين نقول محمد بن شنب فهذا جده، ولكن حين طابق اسمه اسم جده زال الإشكال، والمقصود محمد الحفيد وليس محمد الجد، وفي ترجمته تظهر قيمة الأسرة التي نشأ فيها، فهي المحضن الذي تشكلت فيه عبقريته الموسوعية، وهي أحد أسباب وروافد نبوغه. أدخله والده مع أخيه أحمد بمدينة المدية إلى الكتّاب، لحفظ كلام الله على يد شيخ يدعى أحمد بالصاق، واستطاع أن يحفظ القرآن

⁽²⁾ أنظر الدكتور أحمد بن نعمان، اشهدي يا جزائر، دار الأمة للطباعة والنشر، ط1 (2002).

ص75

⁽³⁾ أنظر محمد الصالح الصديق، محمد بن أبي شنب، أصالة وحدائة، مجلة الثقافة الإسلامية الصادرة من وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، العدد1، 1426هـ، 2005م، ص125-126.

الكريم حفظا جيدا في مدة وجيزة، وحفظ القرآن سمة يتصف بها كل علماء الإسلام تقريبا، وهذا يشير إلى الأثر النفسي والفكري الذي يتركه حفظ كلام الله على الشخص، قال جمال الدين الأفغاني في وصفه للقرآن الكريم: "القرآن وحده هو سبب الهداية، والعمدة في الدعاية، وأما ما تجتمع حوله من آراء الرجال واستنباطهم ونظرياتهم، فينبغي أن لا نعول عليه بصفته وحيا، وإنما نستأنس بصفته رأيا"⁽⁴⁾، ثم التحق ابن أبي شنب بالمدرسة الابتدائية بنفس المنطقة، وأحرز فيها الشهادة، بعد أن تعلم اللغة الفرنسية والتحق بعد ذلك بالمدرسة الثانوية (كوليج)، حيث حصل فيها مبادئ علوم التاريخ والجغرافيا والحساب والطبيعات، ثم رحل من مدينة المديّة إلى العاصمة لاستكمال دراسته، فالتحق بمدرسة المعلمين (Ecole normale) بمدينة بوزريعة، حيث تفرغ للمطالعة والدراسة، تخرّج منها أستاذا في اللغة الفرنسية مع الاعتراف له بالتفوق وحسن السلوك⁽⁵⁾، واشتغل بتعليم اللغة الفرنسية قرب مدينة المديّة، وفي عام 1892 عين معلما في الجزائر مما مكنه من الاحتكاك بكبار العلماء في ذلك الوقت مثل الشيخ عبد الحليم بن سماية والشيخ أبو القاسم بن سديرة، فأخذ عنهمؤلاء العلماء علم التوحيد والفقه والبلاغة، ولم يكتف بهذا فأخذ يتعلم اللغات الأخرى، فتعلم الإيطالية والألمانية والإسبانية والفارسية والإنجليزية والتركية و اللاتينية فأتقنها، وأصبح يتحدث بها بطلاقة حتى يظنه السامع إذ يتحدث بلغة من هذه اللغات بأنه من أبنائها الأصليين، وما قام به ابن أبي شنب من تعلم اللغات تظهر قيمته العلمية في تصوير ابن باديس

⁽⁴⁾ وهبة الزحيلي، المجدد جمال الدين الأفغاني وإصلاحاته في العالم الإسلامي، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ط1، 1418هـ، 1998م، ص42.

⁽⁵⁾ محمد الصالح الصديق، محمد بن أبي شنب أصالة وحدائه ص127، 128.

لحامل لغات الأقوام الأخرى، وذلك حين ربط بين أخذ العلوم المدنية العصرية القادمة من أوروبا، وتعلم لغات هذه القارة، فتعلم اللغات أمر ضروري من هذه الجهة في نظر بن باديس، فكل أمة جهلت جميع اللغات الغربية فإنها تبقى في عزلة عن هذا العالم، ومطروحة في صحراء الجهل والنسيان⁽⁶⁾.

وفي سنة 1896 شارك في امتحان البكالوريا فنال الشهادة، وبعد عامين من ذلك في سنة 1898 تم تعيينه في المدرسة الكتانية بقسنطينة مدرسا خلفا للشيخ عبد القادر المجاوي، وبقي فيها ثلاث سنوات كاملة، ثم انتقل إلى المدرسة الثعالبية للتدريس بها سنة 1901، وفي سنة 1903 كان من ضمن الوفد الذي استقبل الإمام محمد عبده خلال زيارته للجزائر⁽⁷⁾.

وقبل الحديث عن المرحلة الثانية من حياة ابن أبي شنب العلمية، فإنه يمكن تسجيل الملاحظات الآتية في ما يخص مرحلته العلمية الأولى:

أ- نشأ ابن شنب في أسرة صالحة، وتربى فيها تربية إسلامية، فقد ذكر أن أهله لم يغضبوا عليه يوما، ولم يذكروا أن أمه انتهرته أو تجهمت في وجهه⁽⁸⁾، فتلقى رعاية كبيرة أثمرت حفظه للقرآن الكريم صغيرا، فأسرته هي أول عامل من عوامل نبوغه وموسوعيته.

⁽⁶⁾ أنظر: عبد الحميد بن باديس، آثار عبد الحميد بن باديس، من مطبوعات وزارة الشؤون

الدينية، الجزائر، ط1 (1406هـ-1985م)، ص40.

⁽⁷⁾ أنظر: مولود عويمر، الدكتور محمد بن أبي شنب شمعة في الظلام، مجلة البصائر، العدد 659، جويلية 2013، ص16.

⁽⁸⁾ أنظر: محمد الصالح الصديق، محمد بن أبي شنب أصالة وحداثة، ص122.

ب- دراسته في المدارس الفرنسية في المدينة والجزائر العاصمة جعلته يتفتح على الثقافات والمذاهب المختلفة، حتى إنه يعتبر بحق الجامع بين الأصالة والمعاصرة، والقديم والحديث فابن شنب متمسك بدينه ولباسه وأخلاقه، وحافظ لكتاب الله، دارس للعلوم الشرعية المختلفة، ومن جهة ثانية هو العالم والمفكر المتفتح على اللغات العالمية، المطلع على المذاهب الأدبية والفلسفية و الدارس للتاريخ، المتفاعل مع كبار المفكرين والمستشرقين في بلاد الغرب.

ج- إتقانه لكثير من اللغات الحية والميتة، يعد من الأسباب التي جعلت منه عقلا موسوعيا، كما ساعدته في خدمة دينه وقضاياه الإسلامية على نحو الكتاب الذي ألفه عن الشاعر الإيطالي "دانتي"، والذي بين فيه الأصول الإسلامية الموجودة في كتابه "الكوميديا الإلهية".

د- اتصال ابن شنب بكبار العلماء الجزائريين، كعبد الحليم بن سماية وبلقاسم بن سديرة، وتنقله بين أكبر الحواضر العلمية الجزائرية في ذلك الوقت (الجزائر وقسنطينة) يعتبر من الأسباب التي ساعدته على التحصيل العلمي والتوسع المعرفي.

هـ- ممارسة ابن أبي شنب للتدريس في المدرسة الكتانية والثعالبية، ثم بعد ذلك في الجامعة يعتبر ولا ريب عاملا هاما في ترسيخ ما حصل عليه من العلوم، وهو من أسباب نبوغه وتمكنه المعرفي.

و- هناك سبب آخر في نبوغ أبي شنب وموسوعيته، ذكره الدكتور أبو القاسم سعد الله، وهو تحديه للاستعمار بالعلم، فالإدارة الاستعمارية قامت بطرد آلاف العائلات العثمانية المرتبطة

بالزواج بالعائلات الجزائرية، وأجبرتها على ركوب سفن حملتها إلى مدينة أزمير التركية، وعائلة ابن شنب من هذه العائلات التي يطلق عليها تاريخيا "زيجة الكراغلة"، فكانت من العوائل القليلة الباقية ولم تهجر، فرفع ابن شنب التحدي فصار أستاذا لأساتذة الاستعمار وشيخا للمستشرقين⁽⁹⁾.

ثانيا: المرحلة العلمية الثانية من حياة بن أبي شنب:

وأما الشق الثاني من حياة بن أبي شنب فيبدأ مع دخوله إلى الجامعة مدرسا في كلية الآداب، فبعد حصوله على البكالوريا، واصل دراسته العليا بمدرسة اللغات الشرقية، ونال منها الإجازة في اللغة العربية عام 1894م، وعين بعد ذلك أستاذا بالجامعة الجزائرية، مدرسا لعلم العروض والبحث في اللغة الدارجة والمقارنة والتنظير بينها وبين اللغة الفصحى في عام 1903م، وهي السنة التي تزوج فيها وكان عمره 34 عاما، وأما شهادة الدكتوراه فلم يتحصل عليها إلا قبل 5 سنوات من وفاته عام 1924م، إذ ألح عليه رجال العلم بالجامعة أن يتقدم لنيلها فرفض، وبعد الإلحاح من زملائه لبى رغبته، فتقدم ببحثين أحدهما عن الشاعر "أبي دلالة" والثاني عن "الألفاظ التركية والفارسية الجارية على اللسان الدارج في الجزائر" فنال الشهادة بدرجة ممتازة من جامعة الجزائر، فصار أستاذا رسميا بكلية الآداب في جامعة الجزائر عام 1924م⁽¹⁰⁾، وهو أول أستاذ جزائري في كلية الآداب بجامعة الجزائر، التي كانت حكرا على الأساتذة الفرنسيين، كما أنه يعتبر أول

⁽⁹⁾ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر، الجزائر، 2007، ج4،

ص157، 156.

⁽¹⁰⁾ محمد الصالح الصديق، محمد بن أبي شنب أصالة وحادثة، ص129، 130.

من دخل المجامع اللغوية وحضر مؤتمرات المستشرقين، وتخرج على يديه عدد من المفكرين المستشرقين، وهو من الجزائريين القلائل جدا الذين تحصلوا على شهادة الدكتوراه في الأدب العربي في عهد الاحتلال الفرنسي، وابن شنب ليس مدرسا فحسب، ولكنه مفكر كبير وعالم موسوعي استمر انتاجه الفكري أكثر من 30 سنة، فبدأ يظهر في المجلة الإفريقية في أواخر القرن التاسع عشر واستمر إلى وفاته عام 1929م، وله أساتذة كبار تأثر بهم مثل "رينيه باصّي" عميد مدرسة الآداب العليا التي تأسست عام 1880م، و "باصّي" يعتبر عميد الاستشراق الفرنسي في عهد ازدهاره⁽¹¹⁾، وقد انتخب بن أبي شنب عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق سنة 1920، وعضوا في المجمع العلمي الاستعماري بباريس سنة 1924م، راسله مشاهير الكتاب والأدباء منهم كراتشوكوفسكي وأحمد تيمور باشا⁽¹²⁾.

إن الإنجازات العلمية، وخاصة ما يتعلق منها بالجانب التراثي واللغة العربية لابن أبي شنب تعد بحق تحديا للاستعمار الفرنسي الذي كان ينظر إلى الجزائريين نظرة ازدراء، من أجل أن يسهل مهمة تمييزهم وسلخهم من مقوماتهم وثوابتهم الدينية والوطنية، ففقه العلامة ابن أبي شنب وأقرانه هذه الحرب الفكرية والنفسية، فحملوا على كواهلهم مهمة جسيمة ومسؤولية ثقيلة، وهي مواجهة الاستعمار بالعلم، والتمسك بالعادات والتقاليد الجزائرية الإسلامية، وتدمير مخططاته الهادفة إلى إصابة الإنسان الجزائري بالوهن النفسي، فبقاء الأمة واستمرارها عبر الأجيال لا يتم إلا بالمحافظة على العناصر المكونة

⁽¹¹⁾ أنظر: الدكتور أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، ص156، 157.
⁽¹²⁾ أنظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت - لبنان، ط2 (1400هـ - 1980)، ص 190.

لشخصيتها، والمانة لها من الذوبان في كيانات أخرى، فالأمة حتى تدافع عن ذاتها يجب عليها إقامة حواجز مادية ونفسية، فالحاجز المادي هو الخلافة، والحاجز النفسي هو مجموعة القيم والمفاهيم والآداب التي تشكل الروح الجامعة لها، والحاجز النفسي هو آخر الحصون التي تقي الأمة بعد سقوط الحواجز المادية، فلو نجحت أمة من الأمم في المحافظة على الحاجز النفسي تكون قد أنقذت وجودها من التلاشي والذوبان⁽¹³⁾.

شهادات في حقه:

العالم الحقيقي هو الذي يشهد له أهل الفضل بالعلم والصلاح، وشهادتهم ميزان من الموازين التي تعطي للعالم مكانته وقيمتها، والعلامة ابن أبي شنب من هؤلاء الذين شهد لهم القريب والبعيد بالعلم والأخلاق الفاضلة، ومن هذه الشهادات ما يلي:

أ- وصفه الصحفي المرحوم عمر راسم (1880-1959) قائلاً: "لقد كان معجماً لغويا يمشي على الأرض"⁽¹⁴⁾، وقال عنه اسماعيل العربي: "يحفظ من الشعر القديم والحديث ما لم تحفظه ذاكرة من يروي الشعر إلا نادراً، يجمع من أخبار العرب في سائر البلدان والعصور المختلفة ما يدهش جمعه عند إنسان، فقليل ما تخفى عليه دقيقة من دقائق اللغة أو الأدب والتاريخ"⁽¹⁵⁾، واهتمام ابن أبي شنب باللغة العربية في ذلك الوقت له أسباب متعددة، ومنها الاستعمار، فالتبحر

⁽¹³⁾ أنظر: راشد الغنوشي، مقالات، مطبعة تونس قرطاج، ط2، 1988، ص121.

⁽¹⁴⁾ محمد الهادي الحسني، أحداث وأحاديث، دار الوعي للطباعة والنشر، روية الجزائر، ط1

1434هـ-2013م)، ص308.

⁽¹⁵⁾ اسماعيل العربي، الدراسات العربية في الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، المؤسسة الوطنية

للكتاب، الجزائر، ط1، 1986، ص88، 89.

اللغوي عند علمائنا أثناء فترة الاحتلال الفرنسي يمكن تفسيره بالتحدي الذي جابهوا به فرنسا؛ حيث كانت تحارب اللغة العربية بكل الوسائل وتسعى لفرنسة الجزائريين، وإصابة ألسنتهم بالعجمة والרטانة، فالقضاء على اللغة العربية في نظر الاستعمار قضاء على القرآن والإسلام، ولكن علماء الجزائر ما لانوا ولا استكانوا للمخططات الفرنسية الرامية إلى إفساد لغتهم، فقاوموا الفكرة بالفكرة كما قاوموا القوة بالقوة، فكانوا بحق آيات ربانية في اللغة والبيان، وقواميس بشرية تمشي على الأرض.

ب- تحدث محمد السعيد الزاهري (1899-1956) عن الدكتور ابن أبي شنب في لباسه وأخلاقه وأمانته، فبين أنه الجزائري الأصل الذي يتمسك بلباسه ويعتز به، ولا يشعر بعقدة النقص أمام الغربيين، وهو يراحهم في أرقى المعاهد والجامعات، وقد سأل الزاهري ابن أبي شنب يوما كيف تصنع إذا أدركتك الصلاة وأنت في جلسة رسمية؟، فأجابه ابن أبي شنب أوقف الجلسة للاستراحة، فيستريح الزملاء بخطوات يمشونها و دخائن- سجائر- يشعلونها، وأستريح بأداء المكتوبة فأجد الراحة في صلاتي مالا يجدون هم في مشيهم وتدخينهم⁽¹⁶⁾.

وذكر الزاهري أنه زار ابن شنب في جامعة الجزائر، فرآه مع طالبة كانت تحدثه وتبكي فلما ذهبت لشأنها قال ابن شنب للزاهري: "إن هذه الفتاة جاءت تشكو سقوطها في الامتحان، وودت لو أنها نجحت، ولكن أسقطتها أمانة العلم وما هي قيمة العالم إذا لم يكن ثقة وأمينا"⁽¹⁷⁾

⁽¹⁶⁾ المرجع نفسه، ص 308.

⁽¹⁷⁾ المرجع نفسه، ص 309.

وما وصف به الزاهري ابن أبي شنب يمثل التوفيق بين الأصالة والمعاصرة، فابن أبي شنب ليس من أولئك الذين فتنهم زخارف الحضارة الغربية، وارتموا في أحضانها، وتبنوا الغث والسمين من أفكارها، وهو أيضا لا يشعر بعقدة نقص في انتمائه الإسلامي والوطني، ولا ينظر إلى تقاليده في اللباس والسلوك نظرة دونية، ولكنه يشعر باعتزاز وفخر كبيرين وهو يتمسك بأصالته الدينية والوطنية، وفي المقابل يتفتح على اللغات والمذاهب والفلسفات، فينافس أهلها ويتفوق عليهم، ويصير لهم دليلا ومرشدا، فمن مزايا تحليل سيرة العلامة ابن أبي شنب، أنها تكشف لنا عن هذه الشخصية المتماسكة القوية والواثقة في ذاتها، في وقت كان بلده يعاني من كل مظاهر الضعف والاختلال بفعل المستعمر.

ج- وصفه العلامة السوري محمد كورد علي بقوله: "شهدته يخطب بالفرنسية في مؤتمر المستشرقين في أوكسفورد في لباسه الوطني، عمامة صفراء ضخمة، وزنار عريض وسراويل مسترسلة ومعطف من صنع بلاده، فأخذت بسحريانه، واتساعه في بحثه، وظننتني أستمع عالما من أكبر علماء فرنسا وأدبائها في روح عربي وثقافة إسلامية، أو عالم من علماء السلف جمع الله له بلاغة القلم وبلاغة اللسان، ووفر له قسطه من العلم والبصيرة وقد فطر على ذكاء وفضل"⁽¹⁸⁾.

د- رآه أحد المستشرقين يحاضر في جامعة أكسفورد، وهو يقدم بحثا حول شعر أبي جعفر بن خاتمة الأندلسي فقال فيه: "لم أر مدة حياتي من بلغ من النبوغ مبلغ هذا الأستاذ الجليل،

⁽¹⁸⁾ مولود عويمر، الدكتور محمد بن أبي شنب شمعته في الظلام، مجلة البصائر، ص16.

وأقول هذا من غير مبالغة ولا إطرء، لأنني متحقق بأن لو أدركه العالم غيليو مكارنادو الإيطالي لجعل اسمه رمزا لكتابه، الذي جمع فيه اثني عشر عبقرية، الذين حازوا على قصبات السبق في العلم والذكاء منذ ابتداء العالم إلى أواخر القرن السادس عشر⁽¹⁹⁾.

إن هذه الشهادات النيرة في حق العلامة بن أبي شنب تؤكد مدى حاجتنا إلى دراسة سيرة العلماء الصالحين المعاصرين لنا، وقد ذكر ابن مريم التلمساني بعض الفوائد التي تؤخذ من الاهتمام بالعلماء والصالحين، الذين يعاصرون من يكتب عنهم أو يسمع مآثرهم، ومنها أن الغالب في من تقدم إمكان الاستغناء عن التعريف بأحوالهم بتأليف من مضى⁽²⁰⁾، أي أن العلماء المتأخرين أحوج من المتقدمين إلى من يكتب عنهم، ويعرف الناس بعلمهم، وينشر أفكارهم، ومن فوائد الاعتناء بالعلماء الصالحين المعاصرين، أن نشاط النفوس للخير والاقتداء بذكر محاسن المعاصرين لها أو من قرب من المعاصرين، يكون أكثر من نشاطها حين تذكر محاسن من بعد زمانه، فمسافة المعاصر لمعاصره في الخير معلومة⁽²¹⁾، فالناس يحتاجون إلى القدوة العلمية والعملية القريبة حتى تسقط أعذارهم، ولا يتمسكون بالحجج الواهية، كأن يقولوا: إن الزمان لا يصلح للاتزان الأخلاقي، ولا يساعد على تحصيل العلم، وبلوغ مرتبة الاجتهاد، ومن الفوائد التي ذكرها ابن مريم التلمساني، أن ذكر محاسن المتأخرين لا سيما إن كان لهم مدفن في البلد أو ذرية أو

⁽¹⁹⁾ المصدر نفسه، ص 16.

⁽²⁰⁾ أنظر: ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تعليق محمد بن أبي شنب، دار الأبحاث، الجزائر، ط 1، 2013، ص 1434، ص 8.

⁽²¹⁾ أنظر: المصدر نفسه، ص 8.

أصحاب، يوجب لمن وقف على ذلك، المحافظة على خدمتهم والهروب من انتهاك حرمتهم في ذريتهم أو أصحابهم أو كلامهم⁽²²⁾، وهذه الفائدة في غاية الأهمية؛ لأنها تعيد للعلماء حقوقهم وتنزلهم منازلهم، فلا شيء يعطي للعالم قدره كمعرفة سيرته وتراثه الفكري، وما أحوجنا نحن في بلاد الجزائر أن نعرف قدر علمائنا، وما حباهم الله به من علم عميق وخلق رقيق، وأن نفند مقالة سمجة طالما ترددت على الأسماع، وهي أن الجزائر لا يوجد فيها علماء كبار، وإذا تأملنا في أوروبا المسيحية، فإنها مع بلوغها شأوا عظيما في النهضة والتقدم لم تقطع صلاتها بالعالم الإغريقي، بل استطاعت اكتشاف هذا العالم، فتعرفت على سقراط وأفلاطون وأرسطو، ولكن هذا العالم الذي التقت به مرة ثانية قد اكتسى صبغة مسيحية، فالأمة التي لم تخرج من الحضارة، وتعيش في التاريخ، يكون دور الأفكار فيها دورا وظيفيا، وهذا ما فعلته أوروبا حين بعثت الفكر الإغريقي من جديد⁽²³⁾.

مناقشة رأي شيخ المؤرخين الجزائريين في ابن أبي شنب:

يذهب المرحوم أبو القاسم سعد الله إلى أن ابن أبي شنب صنيعة الاستشراق الفرنسي، وكان يخدم أهدافهم، وكعادة أبي القاسم سعد الله لا يتكلم من فراغ، ولا يسوق كلاما أو رأيا مبتورا عن الأدلة، فقد عضد رأيه في ابن أبي شنب بما قاله المستشرق "ألفريد بيل" تلميذ أبي شنب، ففي تأبينه لابن أبي شنب قال: "كان وطني المظهر فرنسي المخبر، وأن فرنسا تثق فيه، وترسله في مهمات دقيقة، ولذلك كافأته بالأوسمة

⁽²²⁾ أنظر: المصدر نفسه، ص 9.

⁽²³⁾ أنظر: مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبوا، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 7 (1407 هـ، 2006 م)، ص 42، 41.

ورموز الاعتراف بالجميل"، وعقّب أبو القاسم سعد الله على قول "ألفريد بيل" أن تمسك ابن أبي شنب بالهندام العربي الإسلامي، ونفض الغبار على أكبر نصيب من المؤلفات العربية الإسلامية، واعتباره عالما مسلما كبيرا، كل ذلك لم يمنعه من السقوط في الفخ الذي نصبت له فرنسا⁽²⁴⁾.

ورأي أبي القاسم سعد الله لا يمكن تسفيهه أو إنكاره جملة وتفصيلا، فالمرء ينبغي له أن يحكم عقله قبل عواطفه، ولا ينبغي له أن ينظر بالتبجيل والقداسة إلى العلماء والمفكرين بحجة إحياء التراث، فالموضوعية في الكتابة هي أقرب طريق يوصل إلى الحقيقة العلمية، ولكن رأي أبي القاسم في الآن نفسه يتسم بالقسوة والمبالغة لاعتبارات عديدة منها أن أبا القاسم نفسه في حديثه عن ابن أبي شنب نلمس تناقضا في كلامه، فقبل أن يصفه بأنه صنيعة الاستشراق قال عنه بأنه يعي التاريخ جيدا وأسر ذلك في نفسه، وأراد أن يتحدى الاستعمار بالعلم ويكون ندا له ولأساتذته، ثم تحدث عن دراسة ابن أبي شنب في المدارس الفرنسية، وهي خطة فرنسية حيث سمحت لعدد من الجزائريين بالدخول إلى مدارسها، لتشكل نخبة من الجزائريين تعمل على إدماج الشعب الجزائري في فرنسا، ثم طرح أبو القاسم السؤال التالي، فهل حُقق للفرنسيين ما كانوا ينتظرون من أمثاله؟، وأجاب رحمه الله عن هذا السؤال من جانبين: الجانب المظهري المتمثل في لباس بن أبي شنب، والذي يعتبر ردا على الإدماج، وأن الجزائري متميز عن الفرنسي

⁽²⁴⁾ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، ص 159، 160.

بأشياء كبيرة منها اللباس، و أما الجانب الثاني فهو الجانب العلمي والفكري، والذي يتجسّد أساسا في خدمته للغة العربية⁽²⁵⁾.
وأما الاعتبار الثاني فهو شخصية بن أبي شنب العلمية والأخلاقية، فتمسكه الشديد بتعاليم دينه وعبقريته العلمية وذكائه الحاد، تجعله من المستبعد أن يكون أداة بيد الاستعمار والاستشراق، ويستبعد أن تنطلي عليه الحيلة وهو لا يدري، فانخرطه في الجامعة مدرسا ومشاركته في المؤتمرات الاستشرافية، وجلسه مع كبار المفكرين والمستشرقين الفرنسيين، وقبوله تمثيل فرنسا في هذه المؤتمرات ونيل الأوسمة منها ليس مبررا كافيا في اتهامه بأنه أداة فرنسية، وقبوله بهذا الوضع لعله اجتهاد منه وطريقة رآها حسنة لخدمة مبادئه الإسلامية ولغته العربية وفكره المشرقي، فكما اعتبر أبو القاسم سعد الله أن كثرة المنشورات عن التراث العربي الإسلامي لا تعتبر موقفا وطنيا، لأن بعض المستشرقين كرينيه باصّي تفوّق على ابن أبي شنب في عدد المنشورات في هذا الميدان⁽²⁶⁾، فكذلك تدريسه في الجامعة الفرنسية، ومشاركته في الملتقيات والمؤتمرات ليس مبررا كافيا للقول بأن ابن شنب صنيعة الاستعمار والاستشراق، وأما ما قاله "ألفريد بيل" -وإن كان تلميذا لابن أبي شنب- فلا يمكن التسليم بقوله وشهادته، فربما قصد التشويه والنيل من أستاذه، فما قاله شبهة واحتمال، وما تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال.

ثالثا: إنتاجه الفكري:

⁽²⁵⁾ المرجع نفسه، ج4، ص 157.

⁽²⁶⁾ المرجع نفسه، ج4، ص 161.

إذا تأملنا في الانتاج الفكري الذي خلفه العلامة ابن ابي شنب، أمكن لنا أن نقسمه إلى محورين أساسين، وهما التأليف والتحقيق، فأما تأليفه فجاء غزيرا، وقد كتب في ميدان اللغة العربية بشكل واسع، ولعلّه قصد بتأليفه خدمة اللغة العربية، والدفاع عنها في وقت كانت تتعرض للتشويه والطمس من قبل الاستعمار الفرنسي، وقد ذكر عادل نويهض مؤلفات أبي شنب، نذكر بعضا منها فيما يتعلق باللغة والأدب، وهي تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب، شرح مثلثات قطرب، أبو دلالة وشعره، وهو أطروحته للدكتوراه، الألفاظ التركية والفارسية الباقية في اللهجة الجزائرية، الأمثال العامة الدارجة في الجزائر وتونس والمغرب، الألفاظ الطليانية الدخيلة في لغة عامة الجزائر⁽²⁷⁾، ولم يقتصر تأليفه على اللغة، وإن كان هو الأغلب، ومن مؤلفاته خارج الإطار اللغوي سبب تملك النصارى لإسبانيا، تاريخ الرجال الذين روا صحيح البخاري وبلغوه للجزائر⁽²⁸⁾.

أما المحور الثاني في إنتاجه الفكري فهو تحقيق المخطوطات، والمخطوط له قيمة بالغة في هذا العصر الذي تتنافس فيه الحضارات والدول والمؤسسات على التفوق العلمي، ومن هذا التنافس لا يأخذ المخطوط قيمة علمية وفنية فحسب، بل له أيضا أهمية سياسية، فالدول الحديثة تحرص على اقتناء المخطوطات وتجميعها باسم الغيرة القومية والبعد الحضاري⁽²⁹⁾، وإسرائيل اليوم تقتني وتحفظ المخطوط العربي ليستفيد منه علماءها وباحثوها، ولتنشر منه ماتشاء ومتى

⁽²⁷⁾ أنظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص 190.

⁽²⁸⁾ أنظر: المصدر نفسه، ص 191.

⁽²⁹⁾ أنظر: أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، ط 1،

(1427هـ، 2006م)، ص 253.

شاءت، ولتجعل الباحثين العرب عالة على مراكز المخطوطات في الدولة العبرية أو تبقى معلوماتهم مبتورة وغير موثقة، وإذا أدركنا قيمة المخطوط وخطورته أدركنا قيمة العمل الذي قام به العلامة ابن أبي شنب، فاهتمامه بتحقيق المخطوطات التراثية يدل على غيخته وحبّه لعلماء بلاده، ورغبته في أن ينشر علمهم وينتقل إلى الأجيال القادمة، ولا يبقى حبيسا في مخطوطات قد تتعرض في أي لحظة إلى الضياع، إما أن تتلف بفعل عوادي الزمن المتعددة، وإما أن يسطو عليها الاستعمار، وكم أخذ من مخطوطاتنا وتراثنا العلمي، فالغالب أن ابن أبي شنب فقه هذا التحدي فطفق يحقق وينشر من التراث الفكري للجزائر ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وقد حقق كتباً كثيرة من نفائس التراث، منها ما يتعلق بتاريخ الرجال والدول، ومنها ما يتعلق باللغة العربية، ومن الكتب التي حققها البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، رحلة الورتلاني، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، طبقات علماء إفريقيا، شرح ديوان علقمة، شرح شواهد جمل الزجاجي⁽³⁰⁾.

ولم يقتصر إنتاجه الفكري على تأليف الكتب وتحقيق المخطوطات، ولكنه ترك مجموعة من المقالات العلمية الهادفة والقيمة، وشارك في العديد من المؤتمرات والملتقيات بأبحاث علمية رصينة⁽³¹⁾.

والحديث عن الإنتاج الفكري لابن أبي شنب يستوجب الإشارة إلى منهجه في البحث والتأليف، وقد أبرز الإمام البشير الإبراهيمي منهج ابن أبي شنب في البحث العلمي، فهو منهج يقوم على المحاكمة والنقد،

⁽³⁰⁾ أنظر: المصدر نفسه، ص: 199.

⁽³¹⁾ أنظر: محمد الصالح الصديق، محمد بن أبي شنب أصالة وحناءة، ص: 137.

وهذا أسلوب يختص به دون غيره في زمانه⁽³²⁾، والإبراهيمي يقول أنه نظر في جميع ما لدينا من تراث الأوائل وتتبع أطوار العلوم الإسلامية من منشئها إلى اتساعها واكتمالها، فوجد أن جميع العلوم الإسلامية ينقصها الإختبار والنقد وينقصها الاستقلال في الرأي، وتعوزها الشجاعة، وحين جاءت عصور الانحطاط، كان ذلك النقصان والاعواز سببا للتقليد في جميع العلوم الإسلامية حتى أصبحت أشباحا بلا أرواح، فكان ابن أبي شنب استثناء من هذه القاعدة، فإذا بحث المواضيع المختلفة كتاريخ العلوم الإسلامية أرضى الحق وأرضى التاريخ، فطبع بحثه بطابع الاستقلال والنقد⁽³³⁾، فامتلاك ابن أبي شنب للحس النقدي والاستقلال الفكري في بحوثه ودراساته العلمية، يرجع من وجهة نظرنا إلى عاملين أساسيين هما تبحره المعرفي خاصة في اللغة والتاريخ، وهذا أعطاه ثقة معرفية بنفسه، فالبضاعة المعرفية التي يمتلكها كما وكيف جعلته يشعر بأنه يملك زادا سيلغيه مراده ومقصوده، وأما العامل الثاني فهو الانفتاح على الفكر الغربي، وهذا العامل لا يقل أهمية عن العامل الأول، فكم من العلماء تبحروا في العلوم الإسلامية كأبي شنب ولكنهم لم يمتلكوا أدوات التحليل والنقد المعرفي، ولم يستطيعوا التخلص من التقليد للمناهج القديمة، ولا الخروج عن الخطة التي رسمها الشيوخ والعلماء في التفكير والبحث، فالعالم الغربي في العصر الحديث بعد أن دخل العالم الإسلامي في الجمود والتقليد كان سباقا إلى تفعيل المناهج العلمية في البحث والدراسة ومنها المنهج النقدي الذي يعطي للباحث الاستقلال الفكري، فامتلاك ابن أبي شنب لنافسية

(32) أنظر: محمد البشير البراهيبي، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، المؤسسة الوطنية

للكتاب، الجزائر، 1987، ج 1، ص 24.

(33) أنظر: المرجع نفسه، ج 1، ص 24، 25.

اللغات الأجنبية واطلاعه على المذاهب الأدبية والفلسفية، واحتكاكه بالمفكرين والمستشرقين الغربيين طور عنده منهج التحليل والنقد في أبحاثه ومؤلفاته.

ثانياً: وفاته:

مرض العلامة بن شنب ودخل مستشفى مصطفى باشا بالعاصمة، فبقي فيه شهراً كاملاً، يعاني من آلام المرض إلى أن توفي يوم الثلاثاء 26 شعبان 1347هـ الموافق لـ 5 فيفري 1929م، وشيعت جنازته يوم الأربعاء في حشد رهيب وخاشع، حضر تشييع جثمانه ممثلون من الهيئات الرسمية في الحكومة، وأساتذة الكليات والمدارس والمعاهد، ودفن في مقبرة سيدي عبد الرحمان الثعالبي، وأبّنه جمع من العلماء والشعراء عبروا عن حزنهم لموت رجل من أعظم رجالات الجزائر علماً وخلقاً⁽³⁴⁾، ومن هؤلاء المؤننين البشير الإبراهيمي الذي قال فيه: "مات محمد فأيقن زملاؤه وشركاؤه في الصنعة أنهم فقدوا بفقد ركن من أركان العلم الصحيح وعلماء من أعلام التاريخ الصحيح، ومثالا مجسما من الأخلاق العالية والخلال الرفيعة، لا بل فقدوا معياراً من أصدق المعايير لقيم الروايات، وعينا لا تغر صاحبها بالسراب، لا بل فقدوا عقلاً هذب العلم وعلماء هذب العقل، فأنتجا خير النتائج، لا بل فقدوا مثالا كاملاً من حياة العمل والنشاط والعبادة للعلم والفناء في العلم"⁽³⁵⁾.

الخاتمة

من خلال استعراضنا لحياة ابن أبي شنب وآثاره الفكرية يتضح أنه شخصية متميزة وموهبة كبيرة في زمن تقتل فيه المواهب، وتشوه

⁽³⁴⁾ أنظر: محمد الصالح الصديق، محمد بن أبي شنب أصالة وحادثة، ص 151.

⁽³⁵⁾ أنظر: البشير الإبراهيمي، آثار البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 22.

الحقائق من قبل الاستعمار الفرنسي، إن ابن أبي شنب قدم نموذجاً مثالياً ومتكاملاً للشخصية الإسلامية، تلك الشخصية التي تمزج بين الأصالة والمعاصرة من غير ذوبان أو جمود، وتتحدى الظروف المختلفة، ولا تستسلم لقساوة الحياة الطبيعية أو الاجتماعية، وهذه نتيجة مهمة نستخلصها من دراسة حياته، فالقدوات العملية القريبة منا تترك ولا شك أثراً طيباً وعميقاً في النفس.

ومن نتائج دراسة حياة العلامة أبي شنب اكتشاف الشخصية المعرفية لعلماء بلاد المغرب عموماً والجزائر خصوصاً، فعلمائنا ليسوا أقل قيمة من علماء المشرق، ويتميزون بجملة من الخصائص المعرفية الإيجابية ومنها العمق الفكري، والموسوعية المعرفية، فليسوا مشغولين بالعلوم الدينية أو اللغوية فقط، وإن كان أكثرهم يدور في فلك هذين التخصصين، فمنهم من كسر منهج الدراسات التقليدية كأبي شنب واشتغل بدراسة المذاهب الفكرية والفلسفية وتعلم اللغات الأجنبية، ومن الخصائص المعرفية لعلماء الجزائر في ضوء سيرة أبي شنب التمسك بالمقومات الدينية واللغوية والتاريخية، وهذا ما يتجلى في تحقيق ابن أبي شنب للمخطوطات التراثية، والتمسك بالفكر التراثي للأمة يرجع في تقديرنا إلى إيمان أولئك العلماء بأن ربط الأمة بمقوماتها يعد سبيلاً أمثلاً للحفاظ على وحدتها وقوتها، والوقوف في وجه المحاولات الاستعمارية الهادفة إلى محوها ومسحها حضارياً.